الأربعاء: 2023/11/08

التوقيت: 14:50 – 16:20

عن بعد

الدرس رقم 04: وسائل الاستشراق

سعى المستشرقون ولا زالوا إلى تحقيق أهدافهم من خلال العديد من الوسائل والأساليب، الشائعة في مجتمعاتهم وإن كان مجال عملهم في الاستشراق سيتطلب في بعض الأحيان استخدام وسائل وأساليب تناسب مجال عملهم وتناسب أهدافهم ودوافعهم، فلم يترك المستشرقون مجالا من مجالات الأنشطة المعرفية والتوجيهية العليا إلاّ تخصصوا فيها، ومنها إقامة معاهد ومكتبات ومتاحف، إلى إنشاء مطابع ودور نشر، وعقد مؤتمرات، وإرسال بعثات وغيرها.

1- كراسي اللغات الشرقية:

لقد أنشِئتْ في الغرب منذ العصر الوسيط مئات المدارس، والمعاهد، وكراسي اللغات الشرقية - ولا سيّما العربيةُ - وصار عددها يتضاعف مع مرور الزمن، وكان المستشرقون يعلِّمون فيها علوم اللغة العربية وآدابها وفنونها، وصلاتها بغيرها من اللغات، وتأثُّرها بالتراث الإنساني وأثرها فيه.

2- التعليم الجامعي والبحث العلمي:

وذلك من خلال فتْح الأقسام الجامعية التي تُعنى بدراسة العالم الإسلامي، وكذا مراكز البحوث الخاصة، بل وفتح جامعات أوروبية وأمريكية في البلاد العربية الإسلامية، ومن أبرز هذه الجامعات: الجامعة الأمريكية التي أصبح لها العديد من الفروع في القاهرة وفي بيروت، وفي دبي وفي الشارقة، وفي إسطنبول وغيرها.

أما الطلاب العرب والمسلمون فقد جاءوا في بعثات دراسية إما على حساب دولهم أو على حسابهم الخاص أو بمنح من الجامعات الغربية التي استهوتهم لأسباب منها السمعة العلمية العالية التي تتمتع بها هذه الجامعات في دول العالم الثالث(حتى وإن كان بعضها متواضع المستوى) وثانياً لرغبة الجامعات الغربية الإفادة من هؤلاء الطلاب في مجال البحث العلمي، بالإضافة إلى الهدف الاستشراقي القديم من التأثير في طبقة من أبناء الأمة المسلمة من المتوقع أن تتسم منابر التوجيه وقيادة الرأي في بلادها، وقد يكون أحد هذه الأسباب المرونة التي تتمتع بها هذه الجامعات في مجال الدراسات العليا وبعدها عن التعقيدات والمشكلات والقيود التي يواجهها الطلاب في الجامعات العربية والإسلامية.

لقد فتحت الجامعات أبوابَها لطلاب العلم من جميع البلدان، ويسَّرتْ لهم البحثَ والاحتكاك بكبار المستشرقين، ثم منحتْهم الشهادات المتوسطة والعالية، ليحتلُّوا أماكنهم في بلادهم.

3- المكتبات الشرقية:

لمعظم المستشرقين مكتبات خاصة، إلى جانب المكتبات الملحقة بالجامعات والمعاهد، وفي كل الدول الغربية توجد مكتبات خاصة باللغات الشرقية، إضافةً إلى ما يوجد من الكتب والمخطوطات في المكتبات الوطنية، ومكتبات الجمعيات والمؤسسات العلمية. وتضم هذه المكتبات آلاف المخطوطات والمطبوعات والدوريات، وكلها ميسر للباحثين.

4- المتاحف الشرقية:

هذه المتاحف إحدى ثمار الجهود التي قام بها مئات المستشرقين للكشف عن الحضارات الشرقية، وكانت من العوامل المساعدة للمستشرقين على الكتابة العلمية الدقيقة في موضوعات مختلفة، مثل ما قام به المستشرق "ليبليش" من وصف دقيق لمناسك الحج، وما قام به جويدي من تحقيق معالم الجزيرة العربية قبل الإسلام، ومجموعة الخطوط العربية من القرن الأول الهجري إلى عام ألف لموريتس، وموسوعة الفنون الإسلامية - وهي تضم 13 ألفَ لوح ورسم - لكرزويل، إلى غير ذلك.

5- المطابع الشرقية:

كان المستشرقون أول من أنشأ المطابع الشرقية في بلدان الغرب والشرقَينِ: الأوسط والأقصى، وشمالي إفريقيا، ثم تعددت مطابع الجامعات، والمكتبات، والجمعيات، والمراكز الثقافية والعلمية والأثرية، ونشرت الأمهات من علوم العرب والشرق بصفة عامة وآدابهم وفنونهم، محققة مترجمة مصنفَّة.

6- التحقيق والنشر وإصدار الكتب:

فقد حرَص الاستشراق منذ بدايته على نشْر الكتب التي تتناول الإسلام من جميع جوانبه - عقيدة وشريعة، وتاريخًا وسيرة - وتناوَلت هذه الكتب الأحوال الاجتماعية في العالم الإسلامي في مختلف العصور.

ولعل من أشهر دُور النشر هذه على سبيل المثال: جامعة أكسفورد التي تَطبع مئات الكتب كلَّ عام حول العالم الإسلامي وقضاياه المختلفة، ومنها هذه الكتب على سبيل المثال: موسوعة أكسفورد للعالم الإسلامي الحديث، وتتكوَّن من أربعة مجلدات، تتألَّف من 1840 صفحة، كما أن الجامعات الأوروبية والأمريكية لها دُور نشر نشِطة، تقوم بجهد معترف به.

فقد قاموا بتحقيق الكثير من كتب التراث، وقابلوا بين النسخ المختلفة، ولاحَظوا الفروق وأثبَتوها، ورجَّحوا منها ما حسِبوه أصحَّها وأعدلها، وأضافوا إلى ذلك فهارسَ أبجدية للموضوعات والأعلام، أثبَتوها في أواخر الكتب التي نشروها، وقاموا في بعض الأحيان بشرْح بعض الكتب شرحًا مفيدًا.

وهكذا استطاعوا أن ينشروا عددًا كبيرًا جدًّا من المؤلفات العربية، كانت عونًا كبيرًا للباحثين الأوروبيين من المستشرقين وغيرهم من بلاد الشرق، وقد عرَفنا الكثير من كتب التراث محقَّقًا ومطبوعًا على أيديهم.

كما تم تأليف الكتب في مختلف الموضوعات عن الإسلام واتجاهاته وعن رسوله ـصلي الله عليه وسلم ـ وعن قرآنه الكريم، وأكثر هذه الكتب محرفة وكثيرة الأخطاء المقصودة.

7ـ المجلات الشرقية:

عدد المجلات والدوريات الشرقية كان بالتقريب ثلاثمائة مجلة متنوعة خاصة بالاستشراق، تنشر الأبحاث والدراسات بمختلف اللغات على الأسلوب العلمي، وتفتح صفحاتها للعلماء الشرقيين، ولكل مجلة نقَّاد متخصصون بالموضوعات، والمؤلفين، والعصور، والدول... إلخ. لم يكتفوا بذلك بل أن استطاعوا شراء عدد من الصحف المحلية في البلاد العربية والإسلامية، حتى ينشروا أفكارهم المغلوطة عن الثقافة العربية.

ونذكر على سبيل المثال الجامعات الآتية التي لها دوريات مشهورة:

·دورية مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن.

·دورية جسور تَصدر عن مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة كاليفورنيا بمدينة لوس أنجلوس.

·مجلة العالم الإسلامي (بالألمانية) من ألمانيا.

·مجلة العالم الإسلامي من معهد هارتفورد اللاهوتي بالولايات المتحدة الأمريكية.

·مجلة العلاقات النصرانية الإسلامية عن معهد العلاقات النصرانية الإسلامية بجامعة بيرمنجهام ببريطانيا.

8- المؤتمرات الدولية:

تعددت مؤتمرات المستشرقين الدولية، وأسهم في كل مؤتمر منها مئات العلماء من المستشرقين وغيرهم، حيث أُلقِيتْ المحاضرات، وعرضت الأبحاث والنظريات والمقترحات، ونشر كل ذلك للاستفادة منها، لكن كانت معظمها محاضرات خطيرة تمثل العداء للإسلام وخاصة تلك المحاضرات التي كانت تلقى في الجامعات العربية الإسلامية والجمعيات العلمية التي كان فيها الحديث عن الإسلام بشكل مشوه في أغلبه. وعليه عقد المؤتمرات كان لأحكام خططهم ودس سمومهم.

9- إنشاء الجمعيات:

مثل جمعيَّتي: المستشرقين الفرنسيين، الذين أصدروا المجلة الآسيوية، والمستشرقين الإنجليز الذين أصدروا مجلة الجمعية الآسيوية الملكية، وجمعية المستشرقين الأمريكيين، الذين أصدروا مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية، وكذلك فعَل المستشرقون في كل بلدٍ من بلدان أوروبا.

10- التقارير السياسية والأحاديث الإذاعية والتلفزيونية والمقالات الصحفية.

طلبت الحكومات الغربية من الباحثين المتخصصين في دراسات الشرق الأوسط، تقديم نتائج بحوثهم ودراساتهم واستشارتهم في اتخاذ القرارات السياسية، وهو ما يعرف في الفكر السياسي بالتقارب بين العلماء والساسة، ولذلك كان المستشرقون لا يبرحون مجالس وزارات الخارجية الغربية ومجالس النواب فيها واللجان المتخصصة، حيث يقدمون عصارة فكرهم لمصلحة بلادهم وأمتهم.

ولا يفوتنا هنا دور الإعلام وإدراكه لأهمية استضافة أساتذة الجامعات المتخصصين في العالم العربي والإسلامي فأتاح لهم المجال لتقديم آرائهم في القضايا السياسية المعاصرة ولا تكاد تخلو نشرة أخبار من استضافة أحد هؤلاء للحديث في مجال تخصصه. ولم تكتف وسائل الإعلام بهذا الأمر فقد طلبت إليهم أن يجيبوا عن أسئلة الجمهور أو استضافتهم في برامج حوارية طويلة، ومن وسائل الإعلام التي تهتم بهذا الجانب، الإذاعات الموجهة مثل إذاعة لندن وصوت أمريكا وإذاعة مونت كارلو وغيرها.

11- المجامع العلمية:

ليس خفيا أن من ضمن ما يقوم به المستشرقون من أعمال ومحاولات حثيثة، دخولهم المجامع العلمية العربية، وخصوصا المجامع اللغوية، حيث تمكنوا عبرها من الاتصال المباشر بالعلماء والمفكرين من العرب والمسلمين، وتمكنوا أيضا من تمرير ونشر وتسريب الفكر الاستشراقي إلى هذه المؤسسات العلمية، ولعل ضلوعهم في اللغة العربية التي أحيانا تفوقوا بها على العرب أنفسهم، هي العون القوي الذي مكنهم من التغلغل إلى هذا الجسد العلمي الكبير، ونفث السموم الفكرية إلى الفكر العربي والإسلامي.

إن مشاركة المستشرقين في المجامع العلمية العربية لم يكن مقبولا أو مرضيا ، فلقد كانت هناك نقاشات وحوارات حادة تصل أحيانا إلى عدم القبول بالمستشرق، بل وإخراجه من المجامع ورفض مشاركته، ولربما يدلنا ذلك على يقظة القائمين على تلك المجامع بمطامع المستشرقين ونواياهم الخبيثة تجاه العرب والمسلمين، ونذكر من أولئك المستشرقين على سبيل المثال لا الحصر، المستشرق هاملتون جب ن العضو المؤسس في مجمع القاهرة و د.طمسون رئيس المجمع اللبناني العلمي، وهؤلاء نماذج وغيرهم كثير من المستشرقين الذين انتشروا في المجامع العلمية العربية والاسلامية والشرقية عامة.

12- دائرة المعارف الإسلامية:

وهي أوسع إنتاج موسوعي استشراقي، من قِبَل مجموعة كبيرة من المستشرقين من جنسيات أوروبية مختلفة، حيث شعر المستشرقون في مؤتمراتهم الدولية بالحاجة إلى دائرة معارف لأعلام العرب والإسلام، تجمع شتات دراساتهم عنهم باللغات الثلاثة: الألمانية، والفرنسية، والإنجليزية؛ فكلفوا هوتسما - من جامعة أوترخت - بإنشائها، ومطبعةَ ليدن بإصدارها، واستُعِينَ بالمجامع ومؤسسات نشر العلم في أوروبا قاطبةً للإنفاق عليها، فتمت في أربعة مجلدات ضِخام، ثم بدأ العمل في نشر طبعة جديدة منقَّحة بإشراف: جوزيف شاخت من (ليدن)، وشارل بلا من (باريس)، وبرنارد لويس من (لندن)، وصدر منها ستة مجلدات ضخام، ولمَّا تكتمل بعدُ.

لكن هناك عدة ملاحظات على هذه الدائرة، وهي:

1/ من حيث المراجع، كثيرًا ما نجد عند حديثهم عن قضية إسلامية رجوعَهم إلى المصادر غير المعتمدة عند علماء الإسلام، والاعتماد على مصادر الاستشراق والمستشرقين وكتاباتهم، وكثيرًا ما يكون الباطل فيها مسلطًا على الحق، وإن كثُر الكلام فيها في كتب المسلمين، أو يكون المكتوب حسب هوى هذا المستشرق.

أما المراجع الإسلامية إن وُجِدت، فالتركيز في أكثرها على الموسوعات العامة؛ كصُبح الأعشى، والفهرست، والأغاني، ونهاية الأرَب، وكذلك موسوعات اللغة.

كما أن الاعتماد على كتب التفسير غير المحقَّقة والمشهورة بالضَّعف، أكثر من الاعتماد على كتب التفسير المعتدلة، والتي يَنحو أصحابها إلى بيان درجة الرواية، أو حتى ذِكر السند؛ كالطبري وابن كثير.

2/ فِقدان التوازن في معالجة المواد العلمية، فبعض المواد الأساسية في الفقه الإسلامي أو الشريعة الإسلامية، عُولِجت في أسطر، بينما نجد موادَّ ثانوية، أو خارجة عن التعريف بالإسلام بالكلية، تستغرق عددًا كبيرًا من الصفحات؛ فالحديث عن أفلاطون مثلاً استغرق من ص433 إلى ص452 من المجلد الثاني من الترجمة الأولى، والحديث عن الإسكندر والإسكندرية استغرَق من ص126 إلى ص140 من المجلد الثاني أيضًا، والحديث عن أفغانستان استغرق من ص351 إلى ص442 منه أيضًا.

3/ التشكيك في المُسلَّمات؛ كأن صلاة الاستسقاء لون من ألوان السحر والشعوذة، والقطع بأن الذبيح إسحاق لا إسماعيل، مع الادعاء بأن الصحابة والتابعين من عمر بن الخطاب إلى كعب الأحبار وكذا أقدم الروايات لم تختلف عن رواية التوراة في هذا الموضوع، ومن العجيب والغريب أن يُشكك هؤلاء في نسبة الآيات القرآنية، فعند الحديث عن صدر سورة الإسراء، ذكروا الآية الأولى ثم ذكر الكاتب قوله: "ولسنا نعرف إذا كانت هذه الآية في الأصل من سورة الإسراء، أم أنها كانت في بادئ الأمر من سورة أخرى، ولا يعنينا البحث فيما يُمكن

أن يكون معناها الحقيقي.."، مع الإيهام بأن القصة مستقاة عن الإنجيل؛ ذلك في قولهم: "وتُشبه مقابلة النبي - صلى الله عليه وسلم - لهؤلاء الأنبياء في بيت المقدس، ظهور عيسى على جبل تابور، وربما نُسِجت على منوالها".

4/ الاتهام: وهو أوضح ما يكون من نسبة القرآن؛ من حيث المصدر إلى أصول يهودية ونصرانية، والادعاء بالأخذ عن غير المسلمين، ودعوى قيام كثير من سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وسيرة الصحابة والتابعين على أساس المحاكاة لسِيَر القِدِّيسين السابقين، والأحبار والرُّهبان.

5/ عدم ذكر الآيات القرآنية والاكتفاء بالنص على اسم السورة، ورقم الآية في كثير من المواطن، وهو ما يجعل الأمر مجهولاً كما هو؛ لعدم حِفظ القرآن من القارئ، أو لعدم توفُّر المصحف - في حينه - وكثيرًا ما يكون الافتراء في النسبة؛ حيث يتم النسبة إلى سورة وآية لا صِلة لها بالموضوع على وجه الإطلاق.

6/ الطعن في السُّنة؛ من حيث النسبة، أو بدعوى الوضع، أو بمحاولة الرد إلى أصول غير إسلامية، أو بدعوى تلفيق وتوفيق كُتَّاب السُّنة وجامعيها بين روايات عدة، وإخراجها بصورة تلفيقيَّة، ومن أوضح الأمثلة على ذلك: دعواهم أن الروايات التي ورَدت بحق أسامة بن زيد بن حارثة، هي من وضْع الرواة، وسببها: "يرجع من ناحية إلى الرغبة في التقليل من شأن بيت علي، ومن ناحية أخرى إلى إظهار أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان ديموقراطيًّا حقًّا بريئًا من التعصُّب للون"، وما ذكروه عند حديثهم عن مادة "إسراء"، وحديثهم عنها بأسلوب فيه تهكُّم وسخرية وتكذيب، يتَّضح ذلك في قولهم: "ويقال: إن النبي - صلى الله عليه وسلم - خاطَب الله في السماء سبعين ألف مرة، مع أن الرحلة كلها تمَّت على وجه السرعة؛ بحيث إنه لَمَّا رجع كان فراشه دافئًا، وكان الكأس الذي قلَبه بقدمه عند إسراعه في الرحيل ما زال نديًّا."

7/ محاولة تأصيل الخرافات على أنها من الإسلام، فكُتب التفسير فيها الكثير من الأساطير، وأهل العلم بالسُّنة والآثار يُدركون ذلك، ولا يُسلِّمون ببعض الروايات، وإن وردت في أُمهات كتب التفسير، وأما كتَّاب الدائرة، فقد نقلوا الإسرائيليات على أنها من الإسلام، وفي إطار تعريفهم بالأنبياء والرسل الوارد ذِكرُهم في القرآن، ما تركوا شاردة من الشوارد إلا وأتوا بها إذا كانت تَخدم هدفهم، ومن أوضح الأمثلة على هذا: ما ورَد بحق إدريس - عليه السلام - والذي أُعجِبت به الملائكة من شدة وَرَعه، حتى زاره ملك الموت في صورة إنسان، ولَمَّا علِم بحقيقته، طلَب منه قبْض رُوحه، فقبضها ساعة من الزمن، ثم أعادها ثانية، فطلب منه رفْعه إلى السماء وإدخاله الجنة، ففعَل، فلمَّا دخل الجنة، رفَض الخروج منها، مستشهدًا بآيات من القرآن، وسيعود إدريس ثانية إلى الأرض؛ ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾.